في الطفولة : مراحلها ، خصوصيات أدبها .

أ- نـــــواري سعودي
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة سطيف

تعد اللغة ، في ارتباطها بالإنسان ، وبوصفها نظاما متكاملا ونسقا متجانسا من العلاقات والبنى، أهم ما شغل الناطق بها وحيره من قديم ، فراح يتفرسها ، ويبحث فيها طورا ، ويلقي عليها ثوب الجلال والقداسة والغيبية طورا آخر، خاصة حال امتزاج بناها بالتوقيع فيما عرف بالشعر الذي هو عند اليونان وحي من ربة الشعر أو آلهته ، وأما العرب فلم يجدوا تبريرا لأسر اللغة الشعرية ألبابهم إلا كونها من إلهام شياطين الشعر الموكلة بالشعراء، وهكذا يستمر التأويل والتفسير لسيطرة اللغة على الإنسان .

ولعله من نافلة القول التذكير بأن الذين بحثوا في اللغة ذاتها En soit ، أو بعدها وسيلة للإبلاغ (Outil) لم يكونوا بالضرورة لغويين ، بل إنهم قد ارتضعوا مشارب علمية متباينة وصدروا في اهتماماتهم اللغوية عن مناح معرفية متعددة ، سيما في المراحل الأولى من البحث ممثلة في الاهتمام المعرفي الشمولي والثقافة العلمية الموسوعية عند المسلمين ، وفي سيطرة الفلسفة على بقية العلوم، باعتبارها أما لها عند اليونان ، ومهما يكن العصر والمرحلة والنظرة الابستمولوجية التي تسيطر عليهما، إلا أن مجهودات العلماء عند سائر الأمم قد ظلت تتضاعف ، مكونة خلفية وركحا معرفيين استند إليهما العصر الحديث في تعامله مع اللغة ؛ بأن صار لها علم خاص يهتم بدراستها من مختلف زوايا النظر إليها مع ملاحظة اختلاف المدارس اللغوية الناشئة هنا وهناك، والوسائل المنهجية المعتمدة فيها، كل ذلك يحدث تحت سيطرة نزعة الاختصاص العلمي .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن التداخل بين العلوم يعود مرة أخرى ، لا كما كان معهودا في المرحلة المعرفية الأولى، من تبعية العلوم والمعارف للفلسفة، وإنما هو تداخل قائم

على قدم المساواة: أي استفادة العلوم من بعضها، دون إقصاء أو إنقاص ، في هذا الخضم شكلت اللغة ، كما يقول المسدي ، مفتاحا متينا " من مفاتيح الحوار بين العلوم " [31]

إن حديثنا عن اللغة في أدق صوره ، وأكثرها موضوعية هو حديث عن متكلمها الذي هو عبارة عن تفاعل مستمر لأبعاده الفكرية ، ودوافعه العاطفية والوجدانية ، وتجلياته السلوكية ، إلى جانب ضرورة استشعارنا استحالة انعزاله عن حركية المجتمع الدائبة أخذا وعطاء . في هذه الأطر ترتبط اللسانيات بعلم النفس منة ناحية ، وبعلم الاجتماع من ناحية ثانية ، دون إغفال الارتباط الاقتضائي لعلم اللسانيات بعلمي التشريح والأعصاب ، كمجال دراسة عيوب النطق ومحاولة علاجها ، والبحث في ارتباط عملية التفكير بالكلام الفردية Performance ، وتأثير العوائق العضوية والوظيفية في عمليتي التحصيل والأداء اللغويين .

إن هذه المزاوجة بين اللسانيات العامة وعلم النفس والتربية خاصة ، إلى جانب بقية الروافد العلمية قد أفرزت ما يسمى باللسانيات التربوية ، التي هي بدورها فرع عن اللسانيات التطبيقية Linguistique Appliquee لأن لها صلة وثيقة بآليات التعلم والتعليم والتفكير وغيرها من العمليات العقلية المعقدة ، على اختلاف أعمار المتعلمين ، والمادة التي يتعلمون ، والجدير بالتنويه في هذا المقام هو جهود العلماء المسلمين في عصورهم الذهبية في مجال نظرية التعلم لضمان جودة التحصيل، وهي مجهودات حري بكل باحث أن ينطلق منها ، على الرغم من أنها لم تفرغ كلها في مصنفات خاصة بها، مفردة لها، على ما نعهده اليوم ، إنما كانت في شكل إشارات وملاحظات تضمنتها كتبهم المختلفة المضامين ، من مثل ما نجد عند بعض المتصوفة كالرازي في مفاتيحه ، وبعض الأصوليين كأبي حامد الغزالي في المستصفى والإحياء ، وبعض الفلاسفة والأطباء كالفرابي في

---

[31] -قضايا في العلم اللغوي ، الدار التونسية للنشر ، جانفي 1994 ، ص10.

كتاب الحروف ، وابن سينا في عيون الحكمة ، وأحوال النفس والخطابة والمقولات والبرهان والجدل .. وغيرها ، هذا إلى جانب توجيهات ابن خلدون القيمة في كتابه المقدمة .

وما أحوجنا اليوم إلى الإفادة من تلك النظرات ، خاصة ونحن نعاني من سوء استثمار الطفولة، بالقضاء على آمالنا المستقبلية فيها ، ويبدو ذلك واضحا من خلال إهمالنا لتلك الطاقات المتقدة حيوية وحركة ، نفسيا واجتماعيا وتعليميا وتربويا ، و حتى صحيا ؟ في حين يتزايد اهتمام أمم العالم المتطور بأطفالها ، وانكباب المتخصصين فيها على تشخيص أدواء المناهج التربوية بمفهومها الموسع ، والسهر على الارتقاء بمحتواها كما ونوعا ، لأن محك تفاضل الأمم اليوم هو المقدرة على بناء الفرد الصانع للحياة، وإن كان من جهد يبذله المخلصون فهو جهد المقلين ، بالنظر إلى ما يحتمه الواقع ، وما تتطلبه الطفولة كمرحلة حاسمة في تكوين الفرد المتوازن نفسيا واجتماعيا وفكريا ومن ثم سلوكيا .

ولعل بعض ما يجب علينا إزاء الطفولة هو إمدادها بما يكون زادا لتعليم اللغة ، وفي الوقت نفسه تفتيق المواهب وتعزيز الخبرات والمهارات ، وإذكاء الملكات ، وتنمية الميول النفسية والاجتماعية الفطرية والمكتسبة ، لأنه – كما يعتقد علماء النفس والتربية – فإن هنلك تناسبا طرديا حاصلا بين الذكاء والحصيلة اللغوية عند الناشئ 32 التي يعد الكتاب من أهم وسائل تحصيلها ، ونخص بالذكر هنا كتب القراءة التي تضمن المتعة والفائدة معا ، في أسلوب أدبي مشرق ، تتناسب مع كل مرحلة من مراحل سنين الطفولة ، مغايرة لغتها للغة الكبار ، بوجه من الوجوه ، في طبيعة مفرداتها ، وانتقاء صيغها وتراكيبها، وصقل سياقاتها النصوصية العامة شعرية أو نثرية، مقروءة أو ممثلة في قالب مسرحي .

ومن المؤكد أن الكتابة للأطفال قد ظلت في معظم الأحيلن تسير في قود الاعتباط والمغامرة ، ويظهر ذلك واضحا

---

[32] -عبد المجيد سيد منصور : علم اللغة النفسي الرياضي ، 1402هـ 1982 ، ص105 وما بعدها .

للدارس من خلال تصفح بعض ما يكتب باسم الأطفال، فالكاتب يصدر في كثرة مما يكتب ، إما عن الهواية التي على ضرورتها تبقى غير كافية ، وإما هو يندفع إلى مجال أدب الأطفال فجأة، لثقة في نفسه بعد أن أمضى شطرا من حياته في الكتابة للكبار ، من غير دراسة واعية لما يحتاج إليه الطفل في مراحله المختلفة ، بناء على المعطيات النفسية والفكرية والاجتماعية، ظنا منه أن ذلك مغنيه ، وقليلون هم الذين يكتب لهم التوفيق بين الفريقين ، لأن كثيرا من المحاولات تعد ضربا من التجديف ، بعيدا عن جادة الصواب، وفي منأى عن هموم الطفولة ومتطلباتها ، ومراحلها ، وفي هذا المجال تجيء هذه الدراسة لمحاولة وضع اليد على ما أقدر وجوب التنبه إليه تحركها دوافع تتمثل في :

أ-الشعور الاجتماعي بجدية المجال ونقص الدراسات العلمية الجادة فيه في بلادنا، وهو شعور يشترك فيه المتخصصون اللغويون والنفسانيون ورجال التربية ، وحتى الجمعيات الخاصة برعاية الأطفال وحماية الطفولة .

ب-تزايد الإحساس الوطني ، إن على المستوى الرسمي ، أو الفردي والجماعي الحر بضرورة إعادة النظر في البرامج التربوية والمقررات التعليمية ، وبخاصة في المراحل الأولى من التعليم .

ج-أهمية سن الطفولة بمراحله المختلفة وخطورته في الوقت نفسه ، لأنه سن يعد فيه الطفل طرفا مستهلكا في كل الظروف، على خلاف الكبار ، الذين يتسنى لهم ، وذلك بحسب درجة تكوينهم، الغربلة ، لهذا كان لزاما تقليب النظر فيما يقدم للأطفال ، والبرامج الرسمية تحديدا ، بأن يكون موافقا للسن والمرحلة من حيث الشكل والأداء والمحتوى ، ليكون بالتالي فعالا وإيجابيا في تنمية الخبرات و المهارات والمعارف والقدرات المختلفة مع مراعاة لا محدودية الخيال الطفولي ، والرغبة الجامحة في المغامرة وركوب المجهول ، وإلى كل هذا محدودية معجمه اللغوي .

د-حاجة كل أمة إلى الأدب في سلمها وحربها ، وليس الأطفال شواذا عن هذه القاعدة الإنسانية الفطرية، بل إن الأدب المكيف بأجناسه المختلفة ، وبصوره ومستوياته المتعددة هو جزء من حياة الطفل السوي ، إذ هو ألصق ما يكون بالنشيد المسموع قبل تعامله مع القصة المكتوبة أو الممسرحة، وحتى قبل أن يدرك محتوى النشيد ومعناه ، فهو ينجذب إليه بحكم الموسيقى والتوقيع المشكلان عمود الهدهدات من الأمهات والجدات قبل النوم .

تهدف الدراسة للوصول إلى مجموعة أهداف ، وتحقيق طائفة من النتائج ، على رجاء الإسهام ولو بالقليل في هذا الميدان الرحب والخصب والوعر في الوقت نفسه ، من مثل :

1-المساهمة في إثراء البحث في مجال أدب الأطفال ، بمعرفة الأشواط العمرية التي يقطعها الطفل ، وما يتهيأ له في كل منها من قدرات نوعية ، تحتاج إلى ما يلبي اهتماماتها .

2-محاولة الوقوف على خصائص ومولدات الجمالية في النص الموجه للأطفال والذي يفترض فيه أن يكون أدبيا ، لا بمفهوم الكبار بل بمفهوم الصغار ، سواء أكان شعرا أم نثرا .

مراحل نمو الطفل :

قبل الخوض في تعريف هذا اللون من ألوان الأدب وخصائصه الشكلانية والمضمونية أرى من الضروري النظر ولو في عجالة إلى مفهوم الطفولة ومراحلها المختلفة وخصائصها النفسية والعقلية والجسمانية وغيرها ، فالطفولة تمثل مرحلة خصوبة نادرة ويكفي في بيان فرادتها أن يعتبرها المربون وكثير من علماء النفس أنها سن العبقرية وفترة نشاط القابلية البالغة للمعارف والخبرات وكل الأنشطة التكوينية[33]، وهو ما يجب أن يضعه نصب عينيه كل ممنهج أو مبرمج لمجموع النشاطات التعليمية والترفيهية الهادفة

[33] -أحمد علي كنعان : الواقع التعليمي لطفل مرحلة التعليم الأساسي : دراسة ميدانية في مناهج التعليم الأساسي الجديدة في سورية ، اللغة العربية للصف الأول الابتدائي أنموذجا ، مجلة الكاتب العربي ، السنة 21، العدد 55-56 ، حزيران 2002، ص23

إلى تنمية الآليات الفكرية والنفسية الطفلية34 وسوف أشير إلى مختلف تلك المراحل والخصائص مع التركيز على ما يهم البحث رأسا :

يمر الطفل بدءا من ولادته ومنذ أيامه الأولى بمراحل لا تتوقف عن الحركية والتغير المستمر، بل وأحيانا الانقلاب ، حتى تسلمه جميعا إلى سن المراهقة المتقلب المحكوم بدوره هو الآخر بطبيعة تلك المراحل ومدى مراعاتنا لحاجيات الطفل في أطواره العمرية المتعاقبة والمتفاعلة تفاعلا متناوبا غالبا كمثل أطياف قوس قزح دون أن يلغي بعضها بعضا ، ولا أن يكون في غناء عنه :

يذهب (كومنيوس:1592-1670) من اتجاه الواقعيين إلى أن الطفولة قوامها مرحلتان اثنتان ، تسمى أولاهما الطفولة المبكرة ، وتمتد من الميلاد حتى السنة السادسة ، أما الثانية فيدعوها الطفولة المتأخرة، وتمسح ما بين سن السادسة والثانية عشرة 35 ، ويبدو هذا ضربا من التعميم ، والتقسيم العائم ، الذي وإن ساير وواكب مفاهيم وتصورات القرن السابع عشر عن الطفولة ، فإنه لا يستطيع أن يفسر كل ما يحدث في السنوات العمرية الأولى للإنسان المسماة طفولة

هذا في الوقت الذي يحدد فيه Piaget مراحل نمو الطفل في أربع ، هي على الإجمال 36:

أ-المرحلة الأولى :

وتشمل السنتين الأولى والثانية ، وتتمثل خصائصها في الذكاء الحسي-حركي sensori-motrice ويستغل

---

[34] -آن باكوس ، كريستيان رومان : 150طريقة لتنمية ذكاء الطفل ، ترجمة فاديا عبدوش ، دار الفراشة ، بيروت ، 2001 ،ص13.

[35] - إيمان العربي النقيب : القيم التربوية في مسرح الأطفال ، دار المعرفة الجامعية ، الطبعة 11 ، 2002م ، ص39 .

[36] - وقد أخذ على بياجيه أنه يمد خاصية التمركز حول الذات إلى سن الحامسة ، بسبب أن ذلك من شأنه تعطيل كل محاولة لفهم الأعوام الأولى من حياة الطفل ، كما قد يوهم بأن كل تلك المدة فترة واحدة لا تقبل التقسيم . تينا بروس : أسس التعليم في الطفولة المبكرة ، ترجمة ممدوحة محمد سلامة ، دار الشروق ، ط 1 ، 1412هـ 1992 ، ص14 ، 15.

الطفل هذه المهارة في التعرف على العالم بما يحويه بواسطة الأدوات الإدراكية المودعة في صميم تكوينه سعيا لتحقيق نوع ما ودرجة ما من التكيف مع المحيط ، ويتوقف نمو هذا الذكاء العملي على مدى تعاون المحيط.

ب-المرحلة الثانية:

ويسميها تمهيدية (Preoperatoire) وتبدأ من العام الثاني إلى غاية السادسة وحتى السابعة من العمر، يميل فيها الطفل إلى التقليد والمحاكاة ، مع صعوبة تحليله لمختلف ما يلاحظه أو يمر به من خبرات ،كما يميل إلى المعرفة المجملة بسبب من عدم القدرة على تحليل المشاعر أو تفسيرها ولا حتى تقييمها كما يفعل الكبار عادة " فالكل خير أو الكل شرير"[37] مع إسباغ وإضفاء الحياة والصبغة الآدمية على كل ما هو حوله ومن مظاهر ذلك النزوع إلى (الإحيائية) الروح الحوارية التي يتسلح بها الطفل مع دراجته أو كرته أو سيارته وتلهج بها البنت مع دميتها وهلم قياسا .

جـ –المرحلة الثالثة:

وهي غالبا ما تمتد من نهاية المرحلة الثانية حتى سن الحادية عشرة وتتسم بكونها عملية –واقعية (Operation-Concretes)وفيها يحاول الطفل الخروج من قوقعة الذات ومن مركزية الأنا ، لا دفعة بل بالتدرج ، وبالقابل الانفتاح على الأبعاد الاجتماعية ، ويظهر ذلك من خلال إيجاد علاقات صداقة غير مسبوقة مع أبناء الجيران في باحات اللعب ، وفي صف المدرسة وقاعات الرياضة وغيرها .

د-المرحلة الرابعة:

---

[37] - كمال الدين حسين ، مدخل في أدب الأطفال ، مطبعة العمرانية ، القاهرة ، 1999 ص41 ، ص98 - نيكولاس تاكر : الطفل والكتاب، دراسة أدبية نفسية ، ترجمة مها حسن بحبوح، منشورات وزارة الثقافية ، دمشق 1999 ، ص27 –150طريقة لتنمية ذكاء الطفل ص14

وتستغرق ما تبقى من سنوات الطفولة ما قبل المراهقة ؛ أي إلى سن الرابعة عشرة تقريبا[38] بحيث يصير الولد ميالا إلى معرفة حقائق الأشياء ، وإلى طول التفكر والقدرة على التعاطي ، ولو نسبيا ، مع المفاهيم المجردة .

وقد حاولت الباحثتان فرانسيس إيليغ ولويز أيمز ، في إطار نشاط معهد جيزيل لنمو الطفولة تفتيت هذه المراحل ؛ بالوقوف عند كل عام من أعوام نمو الطفل ، فيما سمتاه بدورات السلوك 39 ، القائمة على نمطية تناوبية تختصر ملامحها فيما يلي:

أ-خاصية الاتزان والرضى على الذات والغير : وتشمل سني الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والنصف والثامنة والعاشرة والثانية عشرة والرابعة عشرة والسادسة عشرة ، كما يبدو ، أثناء سيطرة هذه الخصائص ، الميل إلى الانفتاح ، بل قد يفرط فيه ، ومن ثم تزداد مخاطره على الطفل كلما تقدم في السن: الرابعة في مقابل الثانية ، الثامنة في مقابل السادسة ، الرابعة عشرة في مقابل العاشرة والثانية عشرة . مع ملاحظة الفارق المتساوي بين الأعمار الثلاثة (4-8-14)مما يعكس إيقاع الحياة الداخلية منها والخارجية بأبعادها المختلفة في أظهر تجل في نفسية الطفل.

ب-خاصية الاضطراب وفقدان التوازن : وتضم أسنان(2 ½ - 3 ½ -4 ½ -5 ½ -7-9-11-13-15) ، ويتميز الطفل في خلالها ، في عموم نشاطه ، بالانكفاء على الذات والعودة إلى خاصية المركزية التي عرفها في بدايات حياته، وبالاضطراب ، إلى درجة أن توسم بعض السنين التي تغلب فيها هذه

---

[38] -من النفسانيين من يمد سن الطفولة إلى حدود السادسة عشرة ، وهو ما يعني انضواء بداية المراهقة فيها . انظر : فرانسيس إيليغ – لويز أيمز : سلوك الطفل ترجمة فاخر عاقل ، دار طلاس ، دمشق ، ط02-1992 ص46.

[39] -نفسه ، ص43 وما بعدها

الخاصية بالعصابية وهي (4 ½ -9-15)[40] ، مع قدرة ابن (7-13) على أن يكون أقدر من غيره في هذه الشريحة التمييزية على تحمل آثار الانسحاب إلى داخل الذات.

إن كل هذه التغيرات فيما بين هذين السنين ، في إطار الرتابة النمائية لمختلف الشرائح العمرية ، لها علاقة ، فيما يعتقد بعض النفسانيين ، من أمثال (شلدون) بنموذج البناء الجسدي ، وهو ما سأختصر فيه القول :

أ-النموذج الأول : ويسمى نموذج مقومة الوريقة الداخلية(**E domorphy)**

ب-النموذج الثاني : ويتمثل في نموذج مقومة الوريقة الوسطى (Mesomorphy)

جـ-النموذج الثاالث : وهو نموذج مقومة الوريقة الخارجية(Ectomorphy)

فمن الناحية الانفعالية يكون أصحاب النموذج الثالث الأقل اجتماعية من بين سائر النماذج ، حتى إنهم قد يسرون ، ولكن ذلك لا يظهر إلا نادرا ، ولا يحسنون التركيز ، كما يميلون إلى المركزية والانطواء على الذات ، إنهم، بحسب ما يذهب إليه (شلدون) ، يتكتمون في العواطف ، وقد يعتبرون ذلك ضعفا واختلالا في توازنهم ، ويتألمون في صمت ، ولا يشركون غيرهم فيما يحسون ، على خلاف أصحاب مقومة الوريقة الداخلية المرحين ، الذين تبدو عليهم ملامح الدفء العاطفي ، بل إنهم لا يكادون يخفون شيئا[41] .

كما أن من علماء النفس من يقسم الأشخاص عموما والأطفال ليسوا شواذا ، بحسب استجابتهم للفن ونظرتهم إليه إلى أربعة أقسام[42]:

---

[40] **السابق ،ص46.**

[41] -السابق ، ص118

[42] -فؤاد حجازي : القصة والطفل، مجلة الكاتب العربي ، السنة الحادية والعشرون ـ العدد55-56حزيران2002، ص194وما بعدها.

أ-الترابطي:وتكون استجابته بقدر ما تثيره التجربة الجمالية الفنية ممثلة في النتاج الأدبي من ذكريات وارتباطات بمواقف أو أحداث أو أشخاص بعينها .

ب-الفسيولوجي:والقيمة الجمالية عنده تنبثق مما قد يشيعه العمل الأدبي على الحواس أو مراكز الاستقطاب في مختلف جهات الإدراك من شعور أو إحساس، فلون يكون مدعاة للسعادة والنشوة واليقظة ، وآخر قد يثير شعورا بالانقباض أو الملل أو غيرها ، وكذلك الحال بالنسبة لما هو مسموع أو ملموس .

جـ-الاندماجي :ويعنون به العينة التي تندمج كلية في العمل الأدبي وتنصهر مع شخصياتها كأنها واحدة منها تدور حيث تدور ، فتتقمص البطولة ، أو تستحضر الموقف فتبكي أو تطرب أو تنقبض ، بحسب ما يستدعيه لك الموقف. وأعتقد أن كثيرا من الأطفال من هذا الصنف على أن تتوزع البقية على الصنفين الأولين .

د-الموضوعي:وهو صنف من المتلقين يمتاز بالحياد والعقلانية ومطلق الاتزان في تقبل الأعمال ، ومن ثم، فلا مكان ،على ما يشبه الجزم في هذا الحمى الخاص بتطور ملكة الفكر ونمو العقل للاندفاعية والعاطفية المفرطة.

مما سبق عرضه كله يتسنى القول: إن أدب الأطفال هو درجة نوعية من الإنتاجية الأدبية أو الفنية يتساوق وسن الطفل ومقدراته ، كالعمر العقلي ، ودرجة النمو اللغوي ، ومختلف ما يعتريه من تغيرات ، في أبعادها النفسية والعاطفية والاجتماعية ، إنه "لون إبداعي موجه إلى الطفل يأخذ في الاعتبار خصائص الطفولة ومراحلها وميول الأطفال وأحاسيسهم وانفعالاتهم ـ وهوـ جزء من ثقافة الأطفال التي هي ، بلا شك ، ثقافية أساسية وليست ثقافة فرعية من ثقافة الكبار"[43]، إنه كما يصوره أبو هيف ، أدب يمتاز بسماته

[43] -محسن ناصر الكناني :سحر القصة والحكاية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2000 ، ص15 - محمد مرتاض : من قضايا أدب الأطفال ،دراسة تاريخية فنية ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،ص03.

الخاصة ، والتي تزداد خصوصية وحدة كلما كان القارئ الصغير أقل سنا 44، ومن ثم يمكن أن تشكل قضية الكتابة للأطفال رحما خصبة لتخلق نظرية للكتابة خاصة بهذا الصنف من القراء ، بناء على الثالوث الثابت : اللغة - الخيال - القيمة.

وعلى الرغم من أهمية هذا الحقل البكر ، لم يلتفت إليه في الوطن العربي عموما ، وبصفة أخص عندنا في الجزائر إلا مؤخرا ، في الوقت الذي كانت بعض الدول الغربية قد أرست فيه تقاليد الكتابة للأطفال منذ القرن الثامن عشر45، وذلك راجع إلى بعض العوامل المشتركة التي امتدت لتشل حراك الفعل الكتابي للأطفال في معظم البلاد العربية وتكاد تنحصر تلك الأسباب في الأمية وطول جثوم الاستعمار يضاف إلى ذلك في بلادنا سيطرة الروح البيروقراطية أو المحسوبية من جهة واحتدام الصراع بين المثقفين الوطنيين والتغريبيين من جهة ثانية ، غير أن بقية البلاد العربية شهدت بواكير الكتابة الطفولية منذ محمد عثمان جلال وإبراهيم العرب وأحمد شوقي .

ولابد من التمييز في هذا الصدد ، مع من ميز ، بين أدب يوجه إلى الأطفال لغرس قيم وعواطف مختلفة المناحي،وتربية ميولات وأحاسيس أو تعديلها إن كانت فطرية يخاف من غلوائها، وبين ما هو تصوير لحياة الطفولة في تجلياتها المختلفة 46 كما أننا قد نجد أنفسنا ككبار نمارس نوعا من الوصاية على مختلف النواحي الإدراكية لأطفالنا،

---

[44] -نحو رواية عربية للأطفال والفتيان ، مجلة الكاتب العربي ، السنة 21 ، العدد 55-56، حزيران 2002، ص114

[45] -ففي بريطانيا مثلا قام (جون نيو بري) عام 1744بتأسيس أول دار نشر ومكتبة للأطفال وحمل على عاتقه توصيل المعرفة الطفولية إلى كل من هو في سنها غراسا ينتظر إثماره بلا شك في يوم ما ، وعلى نفس المنوال سارت شلة من الدول الأوروبية حفاظا على غراسها ، في تفصيل هذا يراجع :من قضايا أدب الأطفال، ص18.

[46] -وهو ما اعتبره الأستاذ أحمد أبو سعد في بحثه : تطور فن الكتابة للأطفال في البلاد العربية ومشكلياته ، من كبرى العوائق في الكتابة للطفل العربي ، الموقف الأدبي ، العدد 104-105 ، كانون الأول 1979 كانون الثاني 1980 ، ص228.

فيظهر ما نكتبه من عل أنه يخدمهم ولكن في حقيقة الأمر هو مسخر بطريقة أو بأخرى لخدمتنا نحن فيما نأمله ،وإن كان الأمل مشروعا، كما أن الكتابة قد تكون بمنطق الكبار ، ونلقي باللائمة على الطفل الذي لم يتلق العمل المكتوب أو الممسرح بالقبول ، متناسين القول المأثور (إن الأبناء قد خلقوا لزمن غير زمنكم) وأن الإعداد للطفل إنما لما هو آت وليس لما هو قائم متحول وحاصل متقلب ومن ثم نضيع عليهم فرصة التفاعل مع الحياة وفق مراحل الطفولة المختلفة والتي بينتها سابقا ، كما أن الكاتب للأطفال لا ينجح إلا بمقدار ما احتفظ به هو ذاته من رواسب الطفولة وبقايا سن العبقرية الأولى قبل أن تغطي عليها شواغل الكبر ونزوعات الكبار ، وكذا بمعرفة مقدار ما نتقاسمه مع البراعم من القوى والقيم والمفاهيم والأحاسيس ، وأعتقد أن أطفالنا ليسوا في مسيس الحاجة إلى كتابة تعكس لهم فترة حاضرة يحيونها ويتقلبون في نعمائها ، بقدر ما هم في حاجة إلى كتابة تستغل تلك الفترة الذهبية العجيبة أو السحرية الحالمة عجينة لتشكلها في أرقى صورها وأبهى مظاهرها ، وهو ما ينبغي لكتب القراءة المدرسية والمطالعة والقصص والحكايا وغيرها أن تركز عليه، هذا فيما يخص المحتوى والقيم ومجموع الأهداف المرجوة ، أما من ناحية البعد اللغوي لهذا الأدب فهو تعليم اللغة الأم بطريقة بسطها وعرضها ميسرة سهلة خالية من مظاهر التعقيد والشذوذ والتركب ، وهو ما سأعرض له في خصائص الكتابة للأطفال .

مقومات الأدب الطفولي :

لكي يؤدي أدب الطفل دوره لابد فيه من مراعاة جملة خصائص 47 ومعايير ومواصفات يصعب حصرها ، لكنه يبدو لنا أن أهما تتعلق بالأبعاد الثلاثة السابقة الذكر ، ومدى ارتباطها

---

47 -يضاف إلى هذه المقومات والخصائص ما يتعلق بشخصية الكاتب ومدى اقتسامه إلى حد ما لأفق الطفولة مع أصحابها .

بما أوضحته من خصائص عمر الطفل وخصائصه هو الآخر النفسية وميولاته :

أ-ما يتعلق باللغة : وأقصد بها مادة القول أو القناة المتخذة في عملية التوصيل، والمتوخاة للتعبير ، ويشترط لها أن يتسلح الكاتب بالانتقائية[48]،و هي خاصة تسري في كامل جهاز اللغة، بدءا بالأصوات المكونة للكلمات وطبيعة أجراس المفردات ومقاطعها المكونة ، بحيث تكون ذات ارتباط بمدلولاتها ، عذبة لها وقع حسن في مسمع الطفل ، بعيدة عن التنافر الصوتي بين مواد التأليف الأساسية ، ثم اختيار الكلمات السهلة والبسيطة لكنها مع بساطتها تلك لا بد من مسحة جمالية تشحنها بحيث توجد عوالم من الفعل السحري ومن السعادة والمتعة الغامرة ، والمثل والقيم الرفيعة أزهى مما هي عليه في دنيا الناس الكبار، ولا شك في أن اختيار الكلمات لا يوفق إليه بنفس الدرجة كل كاتب لأن منها يكون البناء المرتقب في عالم الخلق الأدبي ، ولا يكون المرء كاتبا –كما يقول الكاتب الفرنسي أناتول فرانس في معرض حديثه عن الشاعر لافونتين – ". . إلا إذا أحسن اختياره للألفاظ ، فالكلمات هي أفكار "[49] وفي هذا الإطار يقترح بعض الباحثين المهتمين بهذا المجال ، حرصا على نجاح التأثير [50]:

-ضبط مجموع الألفاظ والتراكيب التي يفهمها الطفل عبر مراحله وفتراته العمرية المختلفة [51] .

-ضبط كشوف بمجموع لغة الطفل المنطوقة للوقوف على أصلها الفصيح .

---

[48] -الطفل والكتاب ص28-29

[49] -حسام الخطيب : سليمان العيسى الموهبة والفن ، من كتاب مع سليمان العيسى ، ص138.

[50] -الطيب الفقيه أحمد ، أدب الطفل وتأثيره ، الكاتب العربي، السنة 21 ، العدد 55-56 ، ص148

[51] -وهذه من بين العقبات التي يراها الأستاذ أحمد أبو سعد عائقة عن سلامة التوصيل ، الموقف الأدبي،ص228.

-النظر في اختلاف معنى اللفظ عبر الامتداد الجغرافي للوطن العربي والتماس أوجه التوحد في شكل اصطلاح مشترك موحد. و كذلك الحال بالنسبة للأسلوب أو طريقة ضم الكلمات إلى بعضها ، إذ ينص المهتمون 52 على أن تكون الجمل بسيطة غير معقدة ولا مقتطعة ولا خاضعة لاجتزاء أو حذف، ولا أن تكون اللغة مفرطة في الأدبية ذات منحى متحذلق يعيق عملية تفاعل القارئ الناشئ مع المضامين المقترحة كقيم ، كأن يميل الكاتب إلى الإفراط في وصف الحبكة وما تعلق بها، لأن الأطفال ، كما سبق التنصيص، لا يملكون القدرة على تحليل المشاعر والعواطف والأحاسيس ولا تجزئتها ولا يتذوقون المفاهيم المغرقة في التجريد ، لذا فهم عادة ما يميلون إلى " تأييد الأحكام الأخلاقية السريعة والسهلة والمبنية غالبا على ردود أفعال عاطفية مباشرة مكونة سلفا تجاه حالات أو أفعال معينة"53.قلت لا يجب أن يكون التركيز على كمل أولئك على حساب الاهتمام والحفول اللائق بالشخصيات التي تمثل العنصر الأكثر إثارة للطفل ، فهو دوما وفي كل قصة أو رواية أو مسرحية أو أنشودة وكل ما يقدم له يبحث عن الشخصية الجذابة التي قد تماثل ما يدور في خياله أو قد يتقمص بعض ملامحها على الأقل.

ب-ما يتعلق بالمضمون أو(القيم):وفيه يحبذ أن يكون ما يقدم للطفل هادفا ، مركزا على قيمة بعينها يكون لها الحظ الأوفر في النص الأدبي أيا كان نوعه أو شكله ، على أن لا تتدافع القيم على موارد الإدراك فتتبعثر جهود الطفل بين البحث عن المتعة التي غالبا ما تصحب العمل من ناحية وبين قالب اللغة من ناحية أخرى ، وبين ترسم المغزى الذي لا ينبغي أن يكون غائبا ، كما لا يجب أن يغلب عليه طابع التعقيد من جهة ثالثة ،أما المواصفة الثانية للمضمون فأن يركز على القيم البنائية في المناحي النمائية المختلفة في

---

[52] -الطفل والكتاب ، ص28-مشكلات الأدب الطفلي ،ص33.

[53] -الطفل والكتاب،ص23.

شخصية الطفل ، ولعل هذا ما يفسر ما ذكرته (نيكولاس تاكر) من عدم رواج قصص هانز أندرسون ذات الجو الكئيب ولا حتى بعض قصص (روسيل هوبان) المتضمنة لبعض المشاهد الدرامية المخيفة والمرعبة[54] ، فلابد إذا من أن يلعب الأدب دور قوة التوازن في حياة الطفل الميال بطبعه إلى المرح وحب الاستكشاف وارتياد الغريب والمجهول من زاوية إيجابية فتكون القصص والروايات والأشعار ومشاهد المسرح لقاحا لإرضاء تلك الميولات ، ليس في مرحلة الطفولة فحسب، بل إن ذلك الإعجاب المنبثق ساعة التلقي يمتد تأثيره –هذا بالنسبة للعمل الناجح - طول حياته ، ويبقى القارئ الصغير "يحمل في نفسه خلال الحياة وإلى الأبد ذلك المنظر أو تلك الموسيقى"[55] وه ما اعتبرته الباحثة خاصية أخرى تنضاف إلى مقومات الأدب الطفلي وأعني بذلك الديمومة أو القدرة على تحقيق ثبات التأثير بالقيمة الفنية المودعة طيلة مراحل الكون الإنساني المتتابعة ، ولو خلا النص من الصورة البصرية واللون ، وإن كان لهما تأثير في الإقبال على القراءة ،وذلك التأثير المستمر هو عامل فعال في إعداد الطفل للمستقبل في تعامله مع المواقف ومحاولة التكيف وعدم الاصطدام بصخرة الواقع العاتية ،وهو ما جعل شاعرا في وزن العيسى يعتبر اللغة الرشيقة المكتنزة بالظلال المعنوية وما تثيره من صور تبقى مع الطفل طوال حياته ركيزة من ركائز هامة يقيم عليها شعره ويقفغ عليها طويلا ليضمن لشعره الخلود ولمتلقيه الفهم والإفادة المستمرة[56].

إن الطفل ، ومن منطلق تكامل بنية الشخصية في كافة أبعادها ، يتذوق ما يقدم له في القصة أو الشعر أو الحكاية .. لكنه في الوقت ذاته يحقق بما يسري في روح العمل حاجة عاطفية ، يتمثل مظهرها في الاستمتاع بالمضمون، أو إعادة قراءة النتاج الذي يكفل له الانتقال

---

[54] -نفسه ، ص27

[55] -مشكلات الأدب الطفلي ،ص35

[56] -مع سليمان العيسى ،ص97

المتكرر والحر ما بين الحقيقة والوهم، أو الواقع والخيال ، لكن ما يقبع وراء ذلك المظهر هو تحقيق ميكانيزم التأقلم ، وتهدئة التوتر الناتج عما يتخلق لديه من مآزم وجودية بفعل الواقع المحيط بالطفل ، فينقل تلك المآزم عن عالمه العاطفي المشحون بالحيرة وإعادة النظر في الذات ، إلى العالم المرسوم بفعل اللغة ، المشكل في عالم الخيال ، وبمجرد أن تحدث عملية الإزاحة أو النقل من الداخل ، وتجسيدها في صورة أشخاص العالم الجديد (في شكل إنسان أو حيوان ..) ، تكون لهم الغلبة على غيرهم .. بمجرد حصول ذلك ، يعود للطفل توازنه العاطفي، ويرى في نفسه القدرة على التعامل مع الآخرين ، وجابهة إملاءات مختلف أطراف المؤسسات الأولية والتابعة 57 ، وكلما كانت أفعال تلك الشخوص خارقة للعادة كانت عملية التعويض المحققة للتوازن أكثر جدوى وأسرع أثرا ، وهذا عمل أو وظيفة للأدب الطفولي يمثل جانبي الثقافة الموجهة للطفل ، الجانب الأنطولوجي أو الوجودي ، بحيث يسمح ما يتلقاه القارئ الصغير بالإجابة عن سؤال مركزي لديه : من أنا ومن الآخر ، وكيف تتحدد تصرفات الأنا في ظل وجود الآخر ، وهذه وظيفة للثقافة بمفهومها الشمولي متقدمة في الوجود على الجانب الثاني المتمثل في الوظيفة الأدواتية ، التي تكفل تسهيل مهمة التكيف مع المؤسسات من خلال إملاء التصرفات والمواقف المناسبة58 ، يحدث هذا من منطلق إحدى حاجات الطفل وهي الحاجة إلى الانتماء إلى الأسرة ثم إلى المجتمع ، المؤسسة الكبرى التي تضمن نظمها في الوقت ذاته الوظيفة المعيارية ، التي وإن كانت تثير الطفل إلا أنها تحقق له الطمأنينة ، وتحميه من

---

[57] - أي الأسرة ، ثم المجتمع بمختلف نظمه . مريم سليم : أدب الطفل وثقافته ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط1 1422هـ 2001م ، ص28.

[58] - مارتين عبد الله بريتساي : التربية والتداخل الثقافي ،تعريب جورجيت الحداد ، عويدات للنشر ، بيروت ، ط1 ، 2003م ، ص16 ، 17

القلق الذاتي المتولد ما بين إطاري الحركة المنطلقة بلا حدود ، واللامساس الممنوع 59

أما الخاصية الثالثة للمضمون فهي التوازن الذي يبني عليه الكاتب أو الشاعر ما يقدمه للأطفال من إنتاج ، توازن يعم ميدان التجربة ، كما يشير إليه العيسى حين يقول " إنني أحرص على أن يتشابك في النشيد الذي أكتبه للصغار الوضوح والغموض ، الواقع والحلم،المحسوس والمعقول ، الحقيقة والخيال"60 وهذه التقنية التي سماها العيسى "المعادلة الشعرية الجميلة" الملتزمة في المحتوى تنمي إذا أحسن استغلالها بلا سرف قوى الإدراك للطفل بأن يعرف مفهوم التناظر في الكون كله، في المحسوسات والمرئيات والمسموعات والمجردات ، وهو مفهوم يفسر إلى حد بعيد روح النظام التي يأتلف بها الوجود من حوله ، وهو قوام الجمال أيضا بدءا بتقاسيم الوجه الذي يطلع على الطفل في المرآة كل يوم وهو يصفف شعره قبل الخروج إلى المدرسة . وصولا إلى نظام الشمس ودقة حركتها المنتظمة في طلوعها وأفولها .

جـ-الخيال : إن ما يميز التعبير الأدبي عموما هو أنه لا يركز على ماذا نقول، بل على كيف نقول، أي طريقة رصف البنى أو الوحدات اللغوية ، والتي الخيال ثمرتها ، فهو إذا غاية المنى في كل لغة أدبية تريد لنفسها أن ترقى عن الاستهلاكية المسفة بما تضفيه على مادة التعبير من مسحة جمالية تشحن بها الألفاظ الماثلة في التركيب من أخيلة وظلال وصور حية شاخصة متحركة ، على أن لا يكون ذلك الشحن من خارج القالب اللغوي بل أن يكون وليد بعدي العملية اللسانية : الاختيار أو الاستبدال أو الجدول ، والتأليف أو النظم أو التركيب ، لأن اعتماد الخيال سما القائم على الصورة البيانية المتوحدة الأركان كالاستعارة ، يعيق ، وفي

---

[59] - أدب الطفل وثقافته ، ص29.

[60] -نفسه ، ص104

أحسن الأحوال ، يحد من مقدرة الطفل على التلقي السليم ويوقع بينه وبين ما يخاطب به جفوة أو غربة تورث النفور ، كما يوقعه الإفراط في العوالم الحالمة ولو من غير تصوير كحضور القوى الخارقة التي ينتهك وجودها مهيمنا في جو النص مفهوم النظام وقانون العلية القائم في ديننا على بذل الأسباب ، وهو ما قد يربي الطفل على الروح الاتكالية والركون إلى أجواء الدعة والخمول ، وجدير أن نشير إلى أن الخيال ليس يعني بالضرورة كلما أطلق الصورة البيانية أو المجاز ، فهناك الرمز والنزوع نحو الإحيائية أي أن يلبس ما ليس حيا خصائص الحي ، كما لو كانت الشجرة تبكي والشمس تفرح والصخرة تتكلم ، وهو كثير في تراثنا العربي، سيما ما جاء من قصص رمزي في كتاب كليلة ودمنة ، وكثير من منظوم شوقي في العصر الحديث ، مما تبدو فيه خاصية الأنسنة[61] بارزة في قالب إيحائي جذاب مثل اليمامة والصياد خاصة إذا وضعت يد الطفل على مكمن الرمزية فيه ، ولكن أرى من الواجب ونحن نقف إزاء الخيال كوسيلة تأثير التمييز بين نوعين منه ، خيال أدبي رفيف ، يؤدي دور البناء في قوى الطفل إذا كان متزنا بأن يكون تصويرا مبسطا يتماشى مع إمكانات مراحل سن الطفولة من حيث عدم القدرة على التمثل والتجريد أو محدوديته على الأقل ،إلى جانب محدودية القدرة على التحليل التي كنت قد أشرت إليها ، لكنه قد يتطرف في استعماله بأن يكون جامحا خارجا عن قانون السببية العلمية التي يحبذ أن تغرس في نفوس الجيل الناشئ، أو معتمدا علة التشبيهات أو الاستعارات المعقدة التي قد يعجز الكبار أنفسهم عن فهم مكوناتها البنائية . وكلاهما واقع فيما كتب ويكتب للأطفال في بلادنا العربية وبخاصة في الجزائر على اختلاف في درجة الهيمنة ، على النوع الثاني ، وهو المفقود تقريبا بيننا ، فهو الخيال العلمي

---

[61] -وقد اعتبرها عادل أبو شنب إحدى وسائل التوصيل الناجحة في أدب الطفل إلى جانب الخوارق ، انظر بحث :أدوات الوصول إلى الأطفال ، الموقف الأدبي ، العدد104-105، ص33 و ما بعدها .

الذي يساهم في تفتيق مواهب الطفل الاستكشافية ويتماشى مع طابع الرغبة في اكتناه المجاهل وفك كل مغاليق ما يصادفه في سبيل الوصول إلى عالم الغرابة الذي كثيرا ما يشغله ، بل إنه كثرا ما يثير الأسئلة من حوله ويدفع من يحيط به من الكبار في محيطه الأسري الضيق أو المحيط الخارجي في مراحل نموه المتقدمة إلى الإجابة عنها . ويكفي في معرفة أهمية بل ضرورة هذا النوع من الخيال لنمو أطفالنا أن غير قليل مما كتب في الغرب من كتابات الخيال العلمي مثل الصعود إلى القمر وارتياد الفضاء في مختلف أبعاده واكتشاف مخلوقات خارج كوكبنا وام سمي عندهم بحرب النجوم قد أصبحت معظم تلك الفرضيات أو التخمينات حقيقة علمية لا يساور فيها الشك ، ولا أدل على ذلك من قصص كوبرنكس الخيالية، مع الإشارة في نهاية هذا المقوم إلى أن الخيال العلمي مادة وسيلة تقديمها للقارئ الصغير أسلوب الخيال الأدبي دون إفراط .أو أسلوب المباشرة والتقريرية في الطرح بحيث تشكل الفرضية كلها في مقابل الواقع - كطرفين – صورة أدبية تشبيهية مجملة، وقد يطوع الخيالان معا في النهوض من كبوة ألمت بعالمنا العربي وقد عمرت طويلا .

وفي الأخير يمكن التنصيص على أن الطفولة مرحلة جد نفيسة تتنافس الأمم في استثمارها ، فمتى ما وجدت العارف بمراحلها وخصائصها وما تتطلبه من مادة تشبع اهتماماتها في جميع أبعادها ، والأديب الذي ينفذ بحسه وذوقه إلى بواطنها ومجاهيلها التي لا تنقاد لكل رائد ، ومتى وجدت المادة الفنية المنقاة ، كان النبت زكيا والزناد قادحا والغرس مثمرا .

<u>بيليوغرافيا الدراسة:</u>

1-أحمد أبو سعد:تطور فن الكتابة للأطفال في الوطن العربي ومشكلياته ، الموقف الأدبي ، العدد 104-105 ، كانون الأول 1979-كانون الثاني 1980 .
2-أحمد علي كنعان : الواقع التعليمي لطفل مرحلة التعليم الأساسي ، دراسة ميدانية في مناهج التعليم الأساسي في سورية ، اللغة العربية للصف الأول

الابتدائي نموذجا ، مجلة الكاتب العربي ، السنة 21 ، العدد 55-56 ، حزيران 2002م.
3-آن باكوس ، كريستيان رومان : 150 طريقة لتنمية ذكاء الطفل ، ترجمة فاديا عبدوش ، دار الفراشة، بيروت 2001م
4-إيمان العربي النقيب : القيم التربوية في مسرح الأطفال ، دار المعرفة الجامعية ، ط11 ، 2002م
5-تينا بروس : أسس التعليم في الطفولة المبكرة ، ترجمة ممدوحة محمد سلامة ، دار الشروق ، ط1 ، 1412هـ 1992م.
6-حسام الخطيب : سليمان العيسى الموهبة والفن (ضمن كتاب مع سليمان العيسى) ، دار طلاس ، دمشق ، ط1 ، 1984م
7-الطيب الفقيه أحمد : أدب الطفل وتأثيره مجلة الكاتب العربي (العدد55-56).
8-عادل أبو شنب : أدوات الوصول إلى الأطفال ، الموقف الأدبي (العدد104-105).
9-عبد السلام المسدي : قضايا في العلم اللغوي ، الدار التونسية للنشر ، جانفي 1994م.
10-عبد المجيد سيد منصور : علم اللغة النفسي الرياضي ، دار المعرفة 1402هـ 1982 .
11-فؤاد حجازي : القصة والطفل ، مجلة الكاتب العربي (العدد55-56).
12-فرانسيس إيليغ ، لويز أيمز : سلوك الطفل ، ترجمة فاخر عاقل ، دار طلاس ، دمشق ، ط2 ، 1992م.
13-كمال الدين حسين : مدخل إلى أدب الأطفال ، مطبعة العمرانية القاهرة ، 1999م
14-محسن ناصر الكناني : سحر القصة والحكاية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2000م
15-محمد مرتاض : من قضايا أدب الأطفال ، دراسة تاريخية فنية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر.
16-مارتن عبد الله بريتساي : التربية والتداخل الثقافي ، تعريب جورجيت الحداد ، دار عويدات للنشر، بيروت 2003م.
17-مريم سليم : أدب الطفل وثقافته ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط1 ، 1422هـ 2001م.
19-نيكولاس تاكر : والطفل والكتاب ، دراسة أدبية نفسية ، ترجمة مها بحبوح ، وزارة الثقافة ، دمشق 1999م.